البعد التداولي للإشاريات في سورة التوبة

الأستاذة :سامية شودار
قسم الآداب و اللغة العربية
كلية: الآداب واللغات.
جامعة محمد خيضر –بسكرة–الجزائر

الملخص

يسعى هذا المقال إلى دراسة الإشاريات في سورة التوبة، وهي تداوليا تندرج ضمن الدرجة الأولى، وهي تهتم بدراسة العناصر اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب، ولها عدة أصناف أشهرها: الإشاريات الشخصية، والإشاريات الزمانية، والإشاريات المكانية.

Abstract:

This article seeks to examine deictics in Sourate El taubah , and deictics pragmatics fall within the first class, which is interested in studying the language elements that are not determined by its reference, except in the context of the speech, and it has several varieties of the most famous: Personal deictics, and temporal deictics, and spatial deictics.

الإشاريات هي مفهوم لساني يجمع كل العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة على المقام، من حيث وجود الذات المتكلمة أو الزمن أو المكان، حيث يُنجز الملفوظ والذي يرتبط به معناه، من ذلك: أنا، وأنت، والآن، وهنا، وهناك، وهذا، وهؤلاء، وهذه العناصر كلها تلتقي في مفهوم التعيين ؛أو توجيه الانتباه إلى موضوعها بالإشارة إليه [1].

فالإشاريات هي علامات لغوية، لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب؛ لأنها خالية من أي معنى في ذاتها، ولذلك فقد كان النحويون سابقا يطلقون عليها اسم " المبهمات"، فإذا أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات، استوجب منا ذلك –على الأقل– معرفة هوية المتكلم والمتلقي والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي[2].

ولا يقف دور الإشاريات في السياق التداولي عند الإشاريات الظاهرة، بل يتجاوزها إلى الإشاريات ذات الحضور الأقوى، وهي الإشاريات المستقرة في بنية الخطاب العميقة عند التلفظ به، وهذا ما يعطيها دورها التداولي في إستراتيجية الخطاب؛ لأن التلفظ يحدث من ذات، بسمات معينة، وفي زمان ومكان معينين؛ وهما مكان التلفظ وزمانه، إذ تجتمع في الخطاب الواحد على الأقل ثلاث إشاريات؛ هي (الأنا، والهُنا، والآن)[3]؛ وهي ما اصطلح عليها اسم: الإشاريات الشخصية، و الإشاريات الزمانية، و الإشاريات المكانية.

أولا: الإشاريات الشخصية:

وهي العناصر الإشارية الدالة على شخص ما (Person)، وتشمل ضمائر المتكلم نحو: أنا، ونحن، وضمائر المخاطب مفردا أو مثنى أو جمعًا مذكرا أو مؤنثا. وضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشارية؛ لأن مرجعها يعتمد اعتمادا كليا على السياق الذي تستخدم فيه[4]، فالذات المتلفظة – المتكلم– تدل على المرسل في السياق، فقد تصدر خطابات متعددة عن متكلم واحد، فذاته المتلفظة تتغير بتغير السياق الذي تلفظ فيه، وهذه الذات هي محور التلفظ في الخطاب تداوليا؛ لأن " الأنا" قد تحيل على المتلفظ[5] الأستاذ أو الطالب، أوالعامل، وتوظيفها يختلف من فترة لأخرى.

كما يشير«أنت» إلى المتلقي للخطاب، وبين«أنا» و«أنت» يتشكل الخطاب، «وتحقيق الفاعلية في اللغة، واستعمالها، يعني الحديث عن الضمائر التي تلعب دور تحويل اللغة إلى ممارسة ونشاط فردي من خلال الاستعمال، حيث إن المتكلم حين يملك اللغة ويتحكم فيها يجعلها من إمكاناته، ويُنصِّب نفسه في مرتبة عالية ضمن العملية التخاطبية، ولا يتحدث إلا لشخص ينصبه أمامه»(6)، يقول مانغونو(Maingunau):« عند استعمال "أنا" و"أنت"[...] فكل متكلم يُرجع نظام اللغة لفائدته، فـ" أنا" و" أنت" ليسا علامات لغوية لنمط خاص من المبهمات (الضمائر)، إنها قبل كل شيء عوامل تحويل اللغة إلى الخطاب»(7).

بناء على ذلك فإن دراسة ضمائر التوبة تداوليا تفرض علينا أن نتساءل أولا: من أين؟ وإلى أين يتجه هذا الخطاب القرآني؟ لأن المقاربة التداولية تحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة منها: من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟ ولأجل من ؟

لا يختلف اثنان في أن سورة التوبة وحي سماوي منزله الله سبحانه و تعالى، ومتلقيه الأول النبي صلى الله عليه وسلم لينذر به المشركين، و يبشر به المؤمنين، ومن ثم فإن أغلب الضمائر تتوزع على هذه المستويات الخمسة: الذات الإلهية، والرسول صلى الله عليه وسلم، و المؤمنون، و المنافقون، و المشركون.

1 – الضمائر التي تشير إلى لفظ الجلالة (الله):

ومن الآيات التي وردت فيها ضمائر تعود إلى الذات الإلهية؛ قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ {14/9}﴾. (8)

تضمنت هذه الآية الكريمة ضمائر مستترة تشير إلى الله سبحانه وتعالى، من خلال الأفعال المضارعة (يخزيهم ،و ينصرهم ، ويشف)، والمعنى الذي نفهمه من ظاهر الآية الكريمة، هو أن الله سبحانه وتعالى أمر معشر المؤمنين بمقاتلة الكفار، فجاءت بصيغة الأمر؛ أي قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته، وأداة مشيئته، فيعذبهم بأيديهم ويخزيهم بالهزيمة، وينصركم عليهم، ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن أذاهم وشردهم المشركون.(9)

وبالعودة إلى السياق الموقفي للآية، نجد أن هؤلاء المؤمنين الذين أذاهم المشركون هم بنو خزاعة [10]، قال ابن عباس: «هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذًى كثيرًا، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أبشروا فإن الفرج قريب». [11]

ولعل المقصود الحقيقي، والخفي وراء هذه الوحدات اللغوية، هو انتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان،و يفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين يُنصرون، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم، وعندئذ ينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين.[12]

والملفت للانتباه في هذه الآية، أن الله سبحانه وتعالى أسند التعذيب إلى اسمه، ويؤول هذا الإسناد على أنه تعالى سيحدث في أنفس المشركين في هذا القتال ألما نفسيا، لعل أظهر أسبابه اليأس وسلب البأس.[13]

وإذا انتقلنا إلى نوع آخر من الضمائر التي تشير إلى الذات الإلهية، نجد الضمائر المتصلة في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ {65/9}﴾.[14]

نجد أن الضمائر التي وردت في هذه الآية، والتي تعود على لفظ الجلالة (الله)، ما اتصل بالكلمتين (آياته، ورسوله)، والمعنى الذي نفهمه من ظاهر الآية الكريمة، هو أن الله تعالى أمر نبيه صلوات الله وسلامه عليه، بأن يقول للمنافقين: أتستهزؤون بدين الله وشرعه وكتابه ورسوله ؟ [15]، ولكن الاستفهام هنا ليس استفهاما حقيقيا؛ لأنه خرج من معنى التساؤل إلى غرض آخر؛ هو التوبيخ [16]، فالله تعالى يقصد توبيخ هؤلاء المنافقين، و مساءلتهم، فهنا قوة إنجازية، تشير إلى نوع فعل الكلام المحقق، وهو ما تعلق بفعل الأمر (قل)، بالإضافة إلى الاستفهام الذي غرضه هنا التوبيخ.

وإذا انتقلنا إلى النوع الأخير من الضمائر وهي الضمائر المنفصلة، والتي تحيل إلى الله تعالى، نجد أنها تكاد تنعدم في سورة التوبة؛ لأنها تكررت في ست آيات فقط من مجمل مئة وتسعة وعشرين آية، ومن بينها قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ

أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ {101/9}﴾. (17)

نلاحظ أن الضمير(نحن) في هذا السياق اللغوي يشير إلى الله الواحد الأحد، وليس إلى الجمع كما هو في النحو العربي، وهذا يدلّ على عظمته جلّ ثناؤه.

نستخلص مما سبق ذكره أن الضمائر التي تشير إلى الذات الإلهية في سورة التوبة أغلبها ضمائر مستترة؛ لأن الله تعالى غني عن التعريف، بالإضافة إلى الضمائر المتصلة؛لأن هذه الضمائر تلعب دورا هاما جدا في علاقة الربط، فعودها إلى مرجع يغني عن تكرار لفظ ما رجعت إليه، وبهذا يؤدي إلى تماسك أطراف الجملة (18)، أما الضمائر المنفصلة فإنها قليلة جدا إذا ما قورنت بالضمائر المستترة والمنفصلة؛ وذلك لأن الضمائر المنفصلة مستقلة الدلالة (19).

2- الضمائر التي تشير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم:

بما أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو المتلقي الأول للنص القرآني، فلا بد أن هناك ضمائر تشير إليه، وهذه الضمائر تنتشر في سورة التوبة، ومن بين الآيات التي تضمنت ضمائر تشير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {40/9} ﴾. (20)

ورد في هذه الآية الكريمة سبعة ضمائر كلها تحيل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وتمثلت في الضمائر التي اتصلت بالكلمات الآتية: تنصره، ونصره، وأخرجه، وصاحبه، وعليه وأيّده، أما الضمير السابع فهو مستتر في قوله (إذ يقول).

أما ضمير المثنى الغائب (هما) فإنه يحيل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وصديقه أبي بكر الصديق، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان، حين أخرجه الكفار من مكة مهاجرا

إلى المدينة؛ لأنهم تآمروا على قتله، ولفظة (الغار) هنا تشير إلى ثقب في جبل ثور، اختبأ فيه النبي صلى الله عليه وسلم، مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه. (21)

ونجد في سياق هته الآية تصوير حال النبي صلى الله عليه وسلم، وصاحبه أبي بكر الصديق عندما كانا في الغار، وكان الله ثالثهما، و كيف أن أبو بكر رضي الله عنه خائفا، جزعا، على صاحبه الحبيب المصطفى، وقد قال له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. والرسول صلى الله عليه وسلم وقد أنزل الله سكينته على قلبه، يهدئ من روعه، ويطمئن قلبه، فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » (22)، وهذا القول يتضمن قوة إنجازيه مفادها النهي، فهو ينهاه عن الخوف والحزن.

و الملاحظ أنه عبر عن الماضي بصيغة الاستقبال (يقول)، للدلالة على التكرار، ولاستحضار صورة ما كان في ذلك الزمان والمكان، ليتمثل المخاطبون ما كان لها من عظمة الشأن. (23)

ويرى البعض أن قوله (إذ يقول لصاحبه لا تحزن) دلّت على عظيم فضل الصديق وجليل قدره، إذ جعله الله تعالى صاحب النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، ورفيقه في الهجرة ، ولهذا قال العلماء من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر؛ لأنه ردّ كتاب الله. (24)

وإذا كانت الآية السابقة قد تضمنت سبعة ضمائر تشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الآية: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ {80/9}﴾ (25)، قد تضمنت ثلاثة ضمائر تشير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي ضمائر مستترة تقديرها (أنْتَ).

وقد افتتحت هذه الآية الكريمة بالأمر، الذي خرج عن معناه الحقيقي، وهو طلب القيام بالفعل، إلى معنى الإخبار و الإعلام، و قصد الشارع الحكيم في هذه الآية الكريمة، والموجه إلى الرسول صلى الله عليه و سلم، هو عدم استغفار الله سبحانه و تعالى للمنافقين،

و إن استغفر لهم الرسول صلى الله عليه و سلم سبعين مرة؛ لأنهم كفروا بالله و رسوله كفرا شنيعا؛ و لأنهم أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر. (26)

و هذا يستلزم علينا أن نفترض أفعالا مسبقة قام بها الرسول صلى الله عليه و سلم؛ وهي الاستغفار الكثير للمنافقين، رجاء أن يهديهم الله و يتوب عليهم، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له، و يقول:" اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون". (27)

والملاحظ أن فعل الاستغفار قد تكرر في هذه الآية الكريمة ثلاث مرات، وذلك للتأثير بالقول، فهو فعل كلامي، تضمن قوة إنجازية أمرية، مفادها الإخبار و الإعلام.

بعد تتبع الضمائر التي تشير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في سورة التوبة، توصلنا إلى أن الضمائر الغالبة؛ هي الضمائر المتصلة، حيث وردت بنسبة اثنين وأربعين ضميرا موزعا على مستوى السورة كلها، بالإضافة إلى الضمائر المستترة؛ لأنها وردت بنسبة واحد وثلاثين ضميرا، في حين أن الضمائر المنفصلة حاضرة في موضع واحد بصيغة المفرد الغائب (هو) في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {61/9} (28)

وتجدر الإشارة إلى أن الله تعالى قد أبرز اسم الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله (يؤذون رسول الله) ، ولم يأت ضميرا (يؤذونه)، والمقصود من ذلك تعظيما لشأنه صلى الله عليه وسلم، وجمعا له بين الرتبتين العظيمتين (النبوة والرسالة)، وإضافته إليه زيادة في التكريم والتشريف. (29)

والخطاب القرآني هو خطاب منزل على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، لتبليغ رسالة ربه إما بالتبشير للمؤمنين، وإما بالتنذير للكافرين إسنادا لقوله تعالى:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ {24/35} ﴾ (30)، فكانت المخاطبة في سورة التوبة بضمير المخاطب أكثر من الغائب، ونظن في ذلك تعظيما لشأنه صلوات الله وسلامه عليه.

3- الضمائر التي تشير إلى المؤمنين:

بما أن وظيفة الرسول صلى الله عليه و سلم هي إبلاغ رسالة الله سبحانه و تعالى، فلا بد من وجود مؤيدين و معارضين، و هؤلاء المؤيدون هم المؤمنون الذين صدّقوا الرسول، وآمنوا به، و أيدوا دعوته.

و من الآيات التي تضمنت ضمائر تشير إلى المؤمنين قوله تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ {24/9} ﴾. [31]

لقد تضمنت هذه الآية الكريمة عشرة ضمائر تشير إلى المؤمنين، و كان ورودها بصيغة المخاطب؛ لأن هذه الآية عبارة عن خطاب قرآني، وجهه الله تعالى إلى عباده المؤمنين، قصد إبلاغهم و إعلامهم بأن هؤلاء الأقارب، إن كانوا من الآباء، و الأبناء، والإخوان، و الزوجات، و من سواهم من جماعتكم التي تنتصرون بهم، و أموالهم التي اكتسبتموها و تخافون عدم نفاقها، و منازل تعجبكم الإقامة فيها، أحب إليكم من الهجرة إلى الله و رسوله، و أحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله، فانتظروا عقوبته العاجلة و الآجلة. [32]

و بما أن لكل أفعال التلفظ وظيفة إنجازية، و هو ما أكده "أوستين" (Austen) في أعماله، نجد أن قوله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾، قد تضمن قوة إنجازية أمرية مفادها التهديد الشديد والوعيد. [33]

و أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {111/9} ﴾ [34]، فقد تضمن تسعة ضمائر تشير إلى المؤمنين، و كان ورودها بصيغة الجمع المذكر الغائب، وأغلبها متصلة نحو: أنفسهم، و أموالهم، و لهم، و هذا النوع من الضمائر هو من أوسع اللواصق مجالا؛ لأنه يمكن أن يستفاد منه ثلاثة معان؛ هي الشخص و العدد و النوع [35]،

فقولنا: حضر زيد و أخوه؛ فالضمير المتصل (الهاء) حدد لنا الشخص و هو (زيد)، كما حدد لنا العدد و النوع، ألا و هو المفرد و المذكر.

و حري بالبيان أن الغرض الذي يقصد الله سبحانه و تعالى إيصاله من خلال هذا البناء اللغوي الذي تشكلت منه الآية الكريمة؛ هو أن الله تعالى اشترى أموال المؤمنين و أنفسهم بالجنة، و هو تمثيل في ذروة البلاغة و البيان لأجر المجاهدين، حيث مثل الله جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال و الأنفس في سبيله[36]، و هنا يظهر كرم الله الكبير و الفائق، « فهو اشترى أنفسا هو خلقها، و أموالا هو رزقها، ثم وهبها لهم، بثمن غال، ففي هذا البيع المشتري فيه رب العزة، و الثمن فيه الجنة، و الصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عليه الصلاة و السلام ... و في ذلك وعدا مثبتا في الكتب السماوية المقدسة التوراة، و الإنجيل، و القرآن، و لا أحد أوفى من الله جل و علا، ثم يبشرهم بذلك البيع الرابح و الفرح به؛ لأنه هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ». [37]

و الجدير بالذكر أن قوله تعالى (و من أوفى بعهده من الله) قد تضمن قوة إنجازية تتعلق بالاستفهام، لكنه خرج عن معناه الحقيقي و هو التساؤل، إلى غرض آخر هو الإنكار و النفي.

4- الضمائر التي تشير إلى المنافقين:

إن الفكرة الأساسية التي عرضت لها سورة التوبة هي فكرة النفاق و المنافقين، فكشفت الغطاء عنهم، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام و المسلمين، و فضحت أساليب نفاقهم، ووألوان فتنتهم، و تخذيلهم للمؤمنين حتى لم تدع لهم سترا هتكته، و قد استغرق الحديث عنهم معظم السورة، و لهذا سماها بعض الصحابة (الفاضحة) لفضحها المنافقين، و كشف أسرارهم، و يرى البعض أن هذا السر في عدم وجود البسملة فيها، و من بينهم (سفيان بن عيينة) الذي يقول :« إنما لم تكتب في صدر السورة البسملة؛ لأن التسمية رحمة، و الرحمة أمان، و هذه السورة نزلت بالمنافقين و بالسيف، و لا أمان للمنافقين».[38]

ونجد من بين الآيات التي تحدثت عن المنافقين قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ

وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ {74/9} ﴾.(39)

نلاحظ أن هذه الآية قد طرحت صفة من صفات المنافقين، بل هي أهم صفة تميزهم، وهي الكفر بعد الإسلام، ولهذا تضمنت العديد من الضمائر التي تشير إليهم، والتي وصل عددها أربعة عشر ضميرا، وهذا يدل على الجو العام في سورة التوبة، والذي يكاد يكون في النفاق والمنافقين.

فكان قصد الشارع الحكيم من هذه الآية هو فضح هؤلاء المنافقين بأنهم أظهروا الكفر بعد إسلامهم، ومن خلالها يدعوهم إلى التوبة عن النفاق؛ لأن توبتهم خيرا لهم، وإن أصروا على النفاق يعذبهم عذابا شديدا في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار، وليس لهم من ينقذهم من هذا العقاب أحد.(40)

وبما أن لأفعال التلفظ (Actes d'énonciation) وظيفة حجاجية وظيفة تظهر كعلامة في بنية الجملة ذاتها، وهذا ما نجده في قوله تعالى: (فإن يتوبوا يك خيرا لهم)؛ لأن الله سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية يحث المنافقين على إنجاز فعل التوبة، والرجوع من النفاق، محاولا إقناعهم بأن التوبة خيرٌ لهم وأفضل، والذي يعرض عن ذلك فمآله نار جهنم خالدا فيها، ولا يُصل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تعالى: ﴿ ولا تُصلِّ• عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ {84/9}﴾.(41)

5- الضمائر التي تشير إلى المشركين:

سبق أن أشرنا إلى أن الهدف الأول الذي عرضت له سورة التوبة؛ هو معاهدة المشركين، ذلك أنه كان بين النبي عليه الصلاة والسلام والمشركين عهودا ومواثيق، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهودا أيضا، ولكن المشركين نقضوا العهود، وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود، ونبذها إليهم، وبذلك قطع الله تعالى مابين المسلمين والمشركين من صلات، فلا تعاهد، ولا سلم، ولا أمان بينهم،

بعد أن منحهم الله فرصة كافية (أربعة أشهر) ليتمكنوا من اختيار ما يرون فيه المصلحة لهم[42]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ {8/9} ﴾.[43]

فقد تضمنت هذه الآية ستة ضمائر تشير إلى هؤلاء المشركين الناكثين للعهود، وكلها ضمائر متصلة وردت بصيغة الغائب، و المقصود من هذه الآية ليس الاستفهام كما هو واضح من خلال ظاهر الألفاظ المشكلة لهذا الخطاب الرباني، وإنما هو استفهام بمعنى الإنكار، وفي ذلك تحريض للمؤمنين على معاداتهم والتبرئ منهم [44]؛ لأن أكثرهم ناقضون للعهود، وفاسقون خارجون عن طاعة الله .

بعد تتبع الضمائر التي وردت في سورة التوبة، و التي تعود على المشركين وجدنا حضورا مكثفا للضمائر المتصلة، وأغلبها بصيغة جمع المذكر الغائب، أما الضمائر المنفصلة فإنها قليلة في هذه السورة؛ و من نماذج ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ {17/9}﴾.[45]

لقد أراد الله سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية أن يبلغ نبيه بأنه لا ينبغي للمشركين أن يعمروا شيئا من المساجد، وهم مقرون بالكفر، ناطقون به قولا و فعلا، سواء كان إعمار حسي بالبناء والتشييد، أو إعمار معنوي بالصلاة، فمساجد الله لله ، ومن أجل عبادته هو، وذكر اسمه عز وجل، ولا يدعى فيها غيره، فكيف يعمرها من لا يعمر التوحيد قلبه ؟ ومن يدعون أن مع الله شركاء [46]، ومن يشهدون على أنفسهم بالكفر، حيث إنهم كانوا في تلبيتهم عند الطواف بالكعبة يرددون: « لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه و ما ملك »[47]، فكيف يعمر بيوت الله من ينكر عنه أنه واحد أحد، فرد صمد، فهم في نار جهنم، و كل أعمالهم باطلة.

و حري بالبيان أن هناك ضمائر وردت في سورة التوبة تشير إلى أشخاص بعينهم، ولا يمكن معرفتهم إلا بالعودة إلى السياق الموقفي، فمثلا في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ

اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ {75/9} فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ {76/9} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ {77/9}﴾.[48]

نلاحظ على ضمائر هته الآية أنها وردت بصيغة الجمع المذكر نحو الضمائر المتصلة بالكلمات: منهم، و آتانا ، ولنصدقنّ، و بخلوا، و تولّوا ... ، و الضمير المنفصل "هم"، وهذه الضمائر تشير إلى رجل يدعى (ثعلبة) جاء إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال : « يا رسول الله : ادع الله أن يرزقني مالا، فقال: و يحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره، خير من كثير، لا تطيقه، فقال: و الذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فلم يزل يراجعه، حتى دعا له، فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل واديا من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر و العصر في جماعة، و يترك ما سواهما، ثم نمت و كثرت حتى ترك الجمعة و الجماعة، فسأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عنه، فأخبروه بخبره، فقال: يا ويح ثعلبة ثلاثا، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ {75/9}﴾ فهلك في خلافة عثمان رضي الله عنه.[49]

و أما في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ {92/9} ﴾ [50] ، ففيه إشارة إلى "البكائين" و هم سبعة من الأنصار، أتوا رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قالوا: قد نذرنا الخروج فأحملنا نغزو معك، فقال: صلى الله عليه و سلم: لا أجد حمولة أحملكم عليها، فتولوا و هم يبكون من شدة الحزن؛ لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه للجهاد في سبيل الله. [51]

و لهذا جاءت الضمائر بصيغة الجمع المذكر نحو الضمائر المتصلة بالكلمات: تحملهم، و تولوا، و أعينهم، و ألا يجدوا... إلخ.

ثانيا: الإشارات الزمانية: هي عناصر إشارية تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم، فزمان التكلم هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام، فإذا لم يعرف هذا الزمان

التبس الأمر على المتلقي[52]، فمن أجل تحديد مرجع الأدوات الإشارية، وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا، يلزم المتلقي أن يدرك لحظة التكلم، فيتخذها مرجعا يحيل عليه، ويؤول مكونات التلفظ اللغوية بناء على معرفتها[53]، كما في الخطاب الآتي:« أنا قادم بعد ساعة»، فلا يستطيع القارئ أن يتنبأ بوقت القدوم بالتحديد، ولا يستطيع أن يعرف أهو الرابعة أوالخامسة أو السادسة؛لأن زمان التكلم وسياقه هما اللذان يحددان المقصود من عبارة (بعد ساعة)، فربما حدث التلفظ قبل دقائق، أو ساعة، أو ساعتين؛ لأن لحظة التلفظ هي المرجع، وهذه العبارة لا تتضمن مرجعا زمانيا يمكن أن يسهم في تحديد زمن القدوم.

ومن أجل ذلك يلجأ المتكلم في خطابه إلى توظيف الإشاريات الزمانية في سياق الإنتاج، وخطاب الإعلانات التجارية من أشهر الخطابات التي تستعمل فيها[54]، مثل:

« ستبدأ التخفيضات الآن»، فلا نستطيع تحديد مرجع الأداة الإشارية «الآن»، إلا بمعرفة لحظة التلفظ.

كذلك صيغ الأفعال فإنها تخضع لتفسير مرتبط بزمن المتكلم، فالفعل الماضي يضع الحدث في نقطة زمنية سابقة على زمن المتكلم، بينما الفعل المضارع يضع الحدث في نقطة زمنية ليست سابقة على زمن المتكلم[55].

وقد أفضت دراسة (بنفنست) للزمن إلى تقسيمه أقساما ثلاثة، معتمدا على علاقة المتكلم بالزمن:[56]

1- الزمن الطبيعي: يحس به الإنسان ويدركه في حياته، ويختلف انقضاؤه من بيئة لأخرى، ويمتاز عن غيره من الأزمنة بالاستمرارية.

2- الزمن التاريخي: بما أن الإنسان جزء لا يتجزأ من البيئة التي ينتمي إليها، وبما أنه كائن حي تتعاقب عليه مجموعة من الأحداث، فيمكنه أن يؤرخ لحياته من بدايتها إلى نهايتها، وذلك على طريق الذاكرة لتأليف ما يدعى بالسيرة الذاتية.

ومن اللسانيين من يحاول إبعاد الزمن عن المرجعية، إذ يؤكد (بنفنست) أن الأحداث ليست هي الزمن، لكنها متضمنة فيه، بينما (أركيوني) تقول:« إن الزمن هو حصر حدث ما في محور الأزمنة بالنسبة لوقت معتمد كمرجع»[57].

ويعود هذا الزمن إلى تاريخ، أو فترة تاريخية في حضارة أو بيئة معينة.

3- **زمن الحدث:** وهو المراد في هذه الدراسة، وقد أطلق عليه (بنفنست) مصطلح (زمن الحديث)، أما (تودوروف) فقد أطلق عليه مصطلح (زمن الخطاب)، وهو البحث عن تمثيلية الزمن في ارتباطه مع لحظة الحديث، ويتجلى زمن الحديث في الحاضر الذي يشكل مرجعيته، أما الماضي والمستقبل فمتعلقان به.

ويتجلى الزمن في اللغة بواسطة القرائن التي تتحد بجوار الأفعال عند نهايتها، أوبواسطة ظروف الزمان[58]، مثل: البارحة، وفي الصباح، واليوم، والآن، وغدا، أما لحظة الخطاب فتبقى المحور الذي ترتب بواسطته مبهمات الزمن، ولتحديد هذه المبهمات تبعا لأزمنتها تقترح (أركيوني) التصنيف الآتي:[59]

1- **المبهمات التزامنية:** استعمالها ودلالتها يقترن بالحاضر.

2- **المبهمات القبلية:** زمنها انقضى وفات.

3- **المبهمات البعدية:** الزمن الذي لم ينقض بعد.

4- **المبهمات الحيادية:** زمنها غير محدد، وسميت كذلك لأنها تخرج عن المبهمات المحددة بسبب اختلافها عنها.

ومما ينبغي الإشارة إليه، أن العناصر الإشارية قد تدل على الزمان الكوني الذي يشمل الفصول، والسنوات والأشهر والأيام والساعات، وقد تدل على الزمن النحوي، وقد يتطابقان في سياق الكلام، وقد يختلف الزمن النحوي عن الزمان الكوني؛ فتستخدم صيغة الحاضر للدلالة على الماضي، وصيغة الماضي للدلالة على المستقبل، فينشأ بينهما صراع لا يحله إلا المعرفة بسياق الكلام ومرجع الإشارة[60].

وبعد تتبع الإشاريات الزمانية في سورة التوبة، لاحظنا أن هناك العديد من الإشاريات التي خالفت معناها المعجمي، ووظفت توظيفا تداوليا، نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {3/9}﴾ (61).

إن العنصر الزماني الذي ورد في هذه الآية هو: ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ ، وهو يحمل معنى البعدية، وقد اختلف في تفسيره، فهناك من يقول أنه يوم النحر، الذي تنتهي فيه فرائض الحج وأركانه، ويجتمع الحاج فيه لإتمام واجبات المناسك وسننها في منى(62)، وهناك من يقول أن المراد به هو الحج كله، وهناك من يرى أن المقصود به هو يوم عرفة،فقد روي عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقة حمراء مخضرمة فقال: لا تدرون أي يوم يومكم هذا ؟ قالوا: يوم النحر، قال: صدقتم يوم الحج الأكبر».(63)

وعن سعيد بن المسيب قال: يوم الحج الأكبر، اليوم الثاني من يوم النحر (64)، وقال مجاهد: يوم الحج الأكبر: أيام الحج كلها (65)، أما عمر بن الوليد السهمي فقد قال: حدثنا شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة، هذا يوم الحج الأكبر، فلا يصومنه أحد (66)، وقال آخر: «هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر». (67)

والقول بـ(يوم الحج الأكبر) يستلزم وجود حج أصغر، وهذا ما يؤكده قول الزمخشري: «وصف الحج بالأكبر؛ لأن العمرة تسمى الحج الأصغر».(68)

وإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ نجده يحمل قوة إنجازية أمرية مفادها التهكم؛ لأنه جعل البشارة التي تكون في مقال آخر غير العذاب، كالتبشير بالنجاح مثلا، وفي ذلك قال أبو حيان «جعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم، وفي هذا وعيد عظيم لهم». (69)

ومن الآيات كذلك التي تضمنت إشاريات زمانية نجد قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {19/9} ﴾ (70)، فالملفوظ الإشاري الزماني (اليوم الآخر) يحمل معنى البعدية؛ لأن المقصود به هو يوم يرث الله تعالى الأرض وما عليها؛ أي يوم تقوم الساعة التي لا ريب فيها، والتي لا يعلم وقتها إلا الله جل وعلا، ولهذا صنف ظرف الزمان (اليوم الآخر) حسب (أركيوني) من الظروف الحيادية التي يصعب تحديد زمانها.

وإذا عدنا إلى السياق الاجتماعي لهذه الآية،وجدنا أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب لما قال: «لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني ».(71)

والمعنى الظاهر لهذه الآية هو التساؤل؛ أي «أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج، وسدانة البيت، كالإيمان بمن آمن بالله وجاهد في سبيله؟»(72)، لكن المعنى المستلزم هو التوبيخ والإنكار؛ أي لا تفعلوا ذلك ،فإنه خطأ(73)، قال الطبري: « هذا التوبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية، وسدانة البيت الحرام، فاعلم أن الفخر في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله».(74)

وأما في قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ {36/9} ﴾(75)، فإن الإشاريات الزمانية التي وردت في هذه الآية هي: الشهور، و اثنا عشر شهرا، ويوم، وأربعة حرم.

نلاحظ أن هذا النص القرآني يرد معيار الزمن، وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التي فطر الله عليها، وإلى أصل الخلقة؛ خلقة السماوات والأرض، ويشير إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة، مقسمة إلى اثني عشر شهرا، يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر، وأن ذلك في كتاب الله؛ أي في ناموسه الذي أقام عليه نظام الكون.(76)

وهكذا يتضمن هذا النص القصير سلسلة طويلة من الدلالات العجيبة والمختارة... يتبع بعضها بعضا، ويمهد بعضها لبعض، ويقوي بعضها بعضا، ويشتمل على حقائق كونية يحاول العلم الحديث جاهدا أن يصل إليها بطريقته ومحاولاته وتجاربه، ويربط بين نواميس الفطرة في خلق الكون، ونواميس هذا الدين وفرائضه، ليقر في الضمائر و الأفكار عمق جذوره، وثبات أسسه، وقدم أصوله، كل ذلك في إحدى وعشرين كلمة، تبدو في ظاهرها بسيطة عادية، واضحة مألوفة.(77)

وعليه فإن الملفوظ الزماني (يوم) في قوله: ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ ﴾ يحمل معنى القبلية، وأما قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ فان المقصود بالمفعول فيه (أربعة)، النائب عن ظرف الزمان (أشهر) بـ: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة (78)، وسميت حرما؛ لأنها معظمة محترمة، تتضاعف فيها الطاعات، ويحرم فيها القتال. (79)

وإذا تأملنا العنصر الإشاري الزماني (ساعة العسرة) في قوله تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ {117/9} ﴾(80)، فإنه يشير في هذا السياق إلى (غزوة تبوك)، وقد سميت بـ (غزوة العسرة)، لما فيها من المشقة؛ لأن وقتها كان في شدة الحر، وقلة الزاد، والضيق الشديد(81)، فقد روي أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها آخر، ثم يشرب عليها(82)، وروى الطبري عن عمر بن الخطاب رضي اله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد، فأنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيرا، فادع لنا، قال : تحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء، فملئوا ما معهم، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر».(83)

والغرض الحقيقي لهذه الآية، والذي يفهم من السياق اللغوي؛ هو التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك، ثم تابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم، وصدرها

بتوبته على رسوله، وكبار صحبه، جبرا لقلوبهم، وتنويها لشأنهم، وبعثا للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي، والمهاجرون، والأنصار.[84]

بعد تتبع الإشاريات الزمانية الواردة في سورة التوبة، لاحظنا أن الإشاريات الغالبة في السورة هي: (يوم) الذي ورد في اثني عشر موضعا، و(من بعد) الذي ذكر في ثمانية مواضع، و(من قبل) الذي ذكر في سبعة مواضع، ويمكننا إجمال ذلك في الجدول الآتي :

الإشاريات الزمانية	نسبة تواترها في سورة التوبة
يوم	12
بعد + من بعد	8
قبل + من قبل	7
إشاريات أخرى	15
المجموع	42

الإشاريات الزمانية الواردة في سورة التوبة.

ثالثا: الإشاريات المكانية: هي عناصر تشير إلى أماكن، يعتمد تفسيرها على مكان المتكلم لحظة التكلم، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربا، أوبعدا، أو وجهة.

ويصعب على المتكلمين باللغة أن يفسروا أو يستعملوا كلمات مثل: هذا، وهذه، وذلك، وهنا، وهنالك، إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، « فهي تعتمد على السياق المادي المباشر الذي قيلت فيه »[85].

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر الإشاريات المكانية وضوحا هي كلمات الإشارة [86]، نحو : هذا، وهذه، وذاك، وذلك وغيرها من كلمات الإشارة إلى قريب أو بعيد من مكان المتكلم،

وكذلك هنا وهنالك من ظروف المكان، التي تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من مكان المتكلم، وسائر ظروف المكان، نحو: فوق، وتحت، وأمام، وخلف، وشمال.

فالإشاريات المكانية « تختص بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام، انطلاقا من الحقيقة القائلة إن هناك طريقتان رئيستان للإشارة إلى الأشياء هما: إما بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى»[87].

وبعد تتبع الإشاريات المكانية في سورة التوبة، لاحظنا أنها وردت بكثرة، فمثلا في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {28/9} ﴾[88]، فإن الإشاريات المكانية التي حضرت في هذه الآية هي: المسجد الحرام، و اسم الإشارة (هذا) .

وإذا تأملنا العنصر المكاني (المسجد الحرام) نجد أن استعماله في هذا المقام يختلف عن معناه المعجمي؛ لأنه أطلق (المسجد الحرام)، وقصد به الحُرم كله[89]؛ أي أطلق الجزء وأراد به الكل، والمعنى: هو أن المشركون نجس فلا تدعوهم يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم، فضلا عن دخول البيت نفسه. [90]

وأما اسم الإشارة (هذا) فقد جاء للتوكيد، والتبيين بضرورة أن لا يقرب أحد من المشركين المسجد الحرام، بعد العام الذي حصل فيه النداء، قال الرازي: « لا شبهة في أن المراد بقوله (بعد عامهم هذا) السنة التي حصل فيها النداء من المشركين؛ وهي السنة التاسعة من الهجرة؛ أي إن المنع يبدأ من السنة العاشرة ».[91]

وإذا أنعمنا النظر كذلك في اسم الإشارة للبعيد (ذلك) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ {63/9} ﴾[92]، فإننا نجده قد وظف في هذا المقام توظيفا تداوليا؛ لأنه قصد به الإشارة إلى أمر قريب، للإيذان ببعد درجته في الهول والفظاعة. [93]

وحري بالبيان أن المعنى الظاهر لهذه الآية هو الاستفهام؛ أي «ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يخالف الله ورسوله، فقد حق دخوله جهنم، وخلوده فيها»[94]، لكن المعنى المستلزم والحقيقي هو التوبيخ لهم، وهو مصير وعقوبة كل من يواجه الله ورسوله ويحاربهما، وجزاءه سيكون الذل العظيم، والشقاء الكبير.[95]

وأما في قوله تعالى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ {57/9}﴾[96]، فإننا نجد من الإشاريات المكانية (الملجأ) و (المغارات) و (المُدَّخل)، وكل منها يختلف معناه عن الآخر، فالعنصر المكاني (الملجأ) هو إشارة إلى المكان الذي يلجأ إليه الخائف ليعتصم به؛ من حصن أو قلعة أو جزيرة في البحر، و (المغارات) جمع (مغارة)؛ وهي الغار في الجبل، أما (المُدُّخَل) تعني السرب في الأرض يدخله الإنسان بمشقة.[97]

وقد أسهمت هذه الإشاريات المكانية في تحقيق مقصدية الشارع الحكيم؛ لأنها رسمت صورة لهؤلاء المنافقين، وهم مذعورون، مطاردون، يطاردهم الفزع الداخلي، والجبن الروحي، وسياق الحديث يجعل لهذا الجبن مشهدا يجسده في حركة؛ حركة النفس والقلب[98]، فصور شخوصهم وهم يعدون بغير نظام، يلهثون كما تلهث الكلاب، يتسابقون إلى تلك الملاجىء؛ من مغارات ومدخلات، فيتسلقون إليها، أو يندسون فيها، وهذا الوصف من أبلغ مبالغة القرآن في تصوير الحقائق التي لا تتجلى للفهم، والعبرة بدونها.[99]

والمعنى الظاهر لهذه الآية، هو أنهم لشدة كرههم للقتال معكم، وشدة رعبهم من ظهور نفاقهم، يتمنون الفرار منكم، والمعيشة في مضيق من الأرض، يعتصمون به من انتقامكم، بحيث لو يجدون ملجأ يلجؤون إليه، أو مغارات يغورون فيها، أو مدخلا يندسون فيه، لوَلَّوْ إليه وهم مسرعون.[100]

ولكن المعنى المقصود هو التنبيه لا الإخبار فقط؛ أي تنبيه المؤمنين إلى أن المنافقين لو قدروا على الهروب منهم، ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا، لشدة بغضهم لكم، فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم[101]، ولهذا نجد الأداة (لو) في قوله: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ﴾ لا تدل

على الشرط، وإنما تدل على معنى آخر يفهم من خلال السياق؛ وهو التمني؛ أي أن هؤلاء المنافقين يودون أن لا يخالطوا المؤمنين؛ لأنهم يخالطونهم كرها لا محبة(102)، ولهذا يضطرون إلى المعيشة بعيدا عنهم، ولو في أضيق الأمكنة.

وأما في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(103)، فإن من الإشاريات المكانية الواردة في هذه الآية نجد: جنات، ومن تحتها، ومساكن، وجنات عدن، واسم الإشارة للبعيد (ذلك).

وإذا تأملنا ظرف المكان (تحتها) نجده يشير إلى الجنات التي سبق ذكرها في الآية، أما لفظة (مساكن) فإنها تشير إلى قصور الجنة التي تنتظر كل مؤمن، وهذه القصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر، والزبرجد. (104)

في حين أن اسم الإشارة (ذلك) تشير في هذا السياق إلى كل الأمور التي سبق ذكرها؛ من وعد للمؤمنين والمؤمنات بالنعيم الجسماني والروحاني(105)، وهذا هو الفوز الكبير، والظفر العظيم، الذي لا سعادة بعده.

والمعنى المستفاد من ظاهر هذا النص القرآني؛ هو أن الله عز وجل وعد المؤمنين والمؤمنات على إيمانهم، بجنات وارفة الظلال، تجري تحت أشجارها الأنهار، لابثين فيها أبدا، لا يزول عنهم نعيمها، ولا يبيد، ومنازل يطيب فيها المقام في جنات عدن، ورضوان من الله، وهو أكبر من ذلك كله، وقد جاء في الحديث الشريف أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة: فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك! فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا. (106)

وإذا أنعمنا النظر في قوله: ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ فإننا نجد أن كلمة (عدن) قد اختلف المفسرون في تأويلها؛ فهناك من أطلقها على معناها المعجمي؛ وهو الإقامة والاستقرار والثبات(107)، بمعنى: منازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والإقامة(108)،

وهناك من أطلقها على معنى مغاير، وأراد بها مكانا، ومنزلا من منازل دار النعيم كالفردوس[109]، وقد روى أبو الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم:« عدن: هي دار الله التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصديقون، والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك».[110]

بعد دراسة أصناف الإشاريات في سورة التوبة نستخلص ما يلي:

– أن سورة التوبة من السور التي جاءت لفضح المنافقين و تنكيلهم و كشف أسرارهم ومخازيهم .

– تنوع الضمائر في سورة التوبة: ما بين الضمائر المتصلة، و الضمائر المنفصلة، والضمائر المستترة.

– تنوع مرجع الضمير في سورة التوبة: ما بين لفظ الجلالة (الله)، و الرسول صلى الله عليه و سلم، و المؤمنون، و المنافقون، و المشركون.

– هناك ضمائر تشير إلى أشخاص بعينهم نحو: ذو الخويصرة، و ثعلبة، و عبد الله بن أبيّ بن سلول، و السبعة البكاؤون.

– لقد تنوعت الإشاريات الزمانية في سورة التوبة، وقد بلغت(42) عنصرا إشاريا، وقد كان الحضور الأقوى للعنصر الزماني (يوم)، و (من قبل)، و (من بعد).

– أما الإشاريات المكانية فقد ساهمت في مواضع كثيرة من السورة في تحديد مقصدية الله سبحانه وتعالى، وقد وردت بمختلف أنواعها، فوجدنا: أسماء الإشارة بنوعيها: القريب والبعيد، وظروف المكان، والأمكنة، نحو: المسجد الحرام، والمساكن، والجنات...إلخ.

– تنوعت مقاصد الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة تبعا لمقتضى السياقات التي وردت فيها، حيث كانت المعاني المقصودة موافقة للملفوظات المشكلة للنص القرآني، وأحيانا أخرى نجد أن الملفوظات لها معنى ظاهرا وآخر مستلزم، لا يفهم إلا من خلال السياق وقرائن الأحوال، مثلما لاحظنا سابقا في الاستفهام، والأمر.

الهوامش:

(1) الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ص116.

(2) ينظر: براون، يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1997، ص35.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص80.

(4) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص18،17.

(5) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص82.

(6) المرجع السابق، ص97.

(7) Dominique Maingueneau, linguistique pour le texte littéraire, Nathan, Paris, France, 2003,4e édition, P16.

(8) التوبة /14.

(9) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط11، 1985، مج 3، ج10، ص 1612.

(10) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن القرشي الديمشقي)، تفسير القرآن الكريم، دار الكتاب الحديث، ج2، ص 918.

(11) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن العظيم، بيروت، لبنان، ط4، 1981، مج 1، ص 524.

(12) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ص1612.

(13) ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، مج 10، ص196.

(14) التوبة /65.

(15) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 546.

(16) المرجع نفسه.

(17) التوبة /101.

(18) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة ، مصر، ط4، 2004، ص 113.

(19) المرجع نفسه، ص156.

(20) التوبة/40.

(21) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص536.

(22) صالح أحمد رضا، ومحمد علي الصابوني، مختصر تفسير الطبري، مكتبة الرقاب، الجزائر، ط2، 1987، ج1، ص325.

(23) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص427.

(24) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص539.

(25) التوبة /80.

(26) المرجع السابق، ص 552.

(27) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص567.

(28) التوبة /61.

(29) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص549.

(30) البقرة/ 119.

(31) التوبة /24.

(32) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 528، 529.

(33) المرجع نفسه، ص532.

(34) التوبة /111.

(35) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص159.

(36) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص564.

(37) المرجع نفسه، ص 565.

(38) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص519.

(39) التوبة /74.

(40) المرجع السابق، ص549.

(41) التوبة /84.

(42) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 518.

(43) التوبة/8.

(44) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص916.

(45) التوبة/17.

(46) سيد قطب، في ظلال القرآن، ص1613.

(47) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص525.

(48) التوبة /75–77.

(49) المرجع السابق، ص551.

(50) التوبة/92.

(51) صالح أحمد رضا، ومحمد علي الصابوني، مختصر تفسير الطبري، ص 337.

(52) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص19.

(53) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص83.

(54) المرجع السابق، ص83.

(55) المرجع نفسه، ص23.

(56) ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص105، 106.

(57) نقلا عن: المرجع نفسه، ص105.

(58) المرجع نفسه، ص106.

(59) المرجع نفسه، ص107.

(60) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص21.

(61) التوبة /3.

(62) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص153.

(63) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 914.

(64) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 914.

(65) المرجع نفسه.

(66) المرجع نفسه، ص913.

(67) المرجع نفسه.

(68) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 521.

(69) المرجع نفسه.

(70) التوبة/19.

(71) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 920.

(72) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 935.

(73) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص218.

(74) المرجع السابق، ص 526.

(75) التوبة /36.

(76) سيد قطب، في ظلال القرآن، ص1615.

(77) المرجع السابق، ص1652.

(78) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 931.

(79) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 534.

(80) التوبة/117.

(81) المرجع السابق، ص 566.

(82) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 971.

(83) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص567.

(84) المرجع السابق، ص566.

(85) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 21، 22.

(86) المرجع نفسه، ص 21، 22.

(87) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص 84.

(88) التوبة/28.

(89) عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص530.

(90) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص275.

(91) نقلا عن: وهبة الزحيلي، التفسير المنير، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1991، مج10، ص169.

(92) التوبة/63.

(93) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 549.

(94) المرجع نفسه، ص546.

(95) المرجع نفسه.

(96) التوبة/57.

(97) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص486،485.

(98) سيد قطب، في ظلال القرآن، ص1666.

(99) سيد قطب، في ظلال القرآن ، ص486.

(100) المرجع نفسه.

(101)محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 542.

(102) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 940.

(103) التوبة/72.

(104) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 548.

(105) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص547.

(106)محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 548.

(107) المرجع السابق، ص545.

(108) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ص 548.

(109) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص545.

(110)وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ص302.